انزعجت السيدة الفرنسية انزعاجا شديدا عندما عرفت اننى انوى العودة الى معتقل الزيتون ، مرة اخرى ، على الرغم من نجاحى فى الهرب منه ! لم تتصور السيدة الفرنسية ان هناك من يترك الحرية ويذهب بقدميه الى السجن !

حاولت المستحيل لاقناعنا ـ انا وزميلى ـ بترك البلاد والهرب الى الخارج ! وعرضت علينا كل مدخراتها ، فى محاولة لمساعدتنا على البقاء خارج الاسوار ! فالحرية ـ فى نظرها ـ هى اثمن شىء فى الوجود ورفضت الاقتناع بوجهة نظرنا ، ولم تستطع ان تتقبل فكرة عودتنا الى السجن بعد ان اتيحت لنا فرصة الاستمتاع بالحرية !

وكانت صادقة مع نفسها ، ومبادئها . فهى فرنسية ، وهذه هى فرنسا !

مس فرنسا!

يوم

تاريخ اليوم الذى لا انساه كان ٢٦ رمضان سنة ١٩٤٢ . وكان يوافق ليلة القدر . وهى ليلة مقدسة بالنسبة لنا نحن اهل الريف . وعلى الرغم من اننى اقمت فى المدينة . وتخرجت ضابطا فى القوات المسلحة ، الا اننى لم انس ابدا ما رسخ فى عقلى وقلبى عن ليلة القدر . وكنت احتفل بها احتفالا خاصا ، يزدحم باكبر ذكرياتى ، المرتبطة بتلك الليلة .

احتفال تلك السنة ، جاء مختلفا ، عما سبقه .. جاء احد الضباط الى الميس واستدعانى ، وكان هو اركان حرب قسم القاهرة اى حامية القاهرة ، وفى طابور رسمى وقفت امامه وفى لهجة عسكرية صارمة قال :

اليوزباشى محمد انور السادات فاجيت افيدم

فقال :

« لقد صدر النطق الملكى السامى الكريم » وتوقف لحظة اعتقدت فيها ان هذا السمو والكرم هو الافراج عنى ، ولكنه لم يلبث ان اكمل قراءة نص النطق الملكى السامى الكريم وقال : « بالاستغناء عن خدمات حضرتك وحضرتك حر من اليوم » ثم تاخر الى الخلف خطوة وانا انزع علامات رتبة اليوزباشى من على اكتاف استجابة للنطق الملكى السامى الكريم ..

وفى نفس اللمحة تقدم المرحوم محمد ابراهيم امام ـ المسئول عن البوليس السياسى وقتذاك والمعروف بلباقته ، ودبلوماسيته ، واسلوبه المميز فى تغليف القرارات ايا كانت بكلمات طيبة ، ومعسولة ! وقال لى :

لو سمحت تتفضل معى للذهاب الى المحافظة ! مجرد روتين واجراءات عادية !

فقلت له : « لا يا امام . قل لى الحقيقة . وحدد اين ستذهب بى . فانا صايم كما تعلم ، وجندى المراسلة سيحضر لى الافطار عند المغرب ، ويجب ان يعرف مكانى حتى يحضر لى طعامى . »

لا ينسى فى حياتى .. وقتها كنت موقوفا فى ميس الضباط . وكلمة موقوف تعنى التحفظ على داخل اسوار الميس . وهو نظام يختلف عن نظام القبض والسجن فى النظام المدنى . والضابط الذى يصدر الامر بايقافه « يخلع » القايش ـ وهو حزام من الجلد ـ ويبقى فى الميس تحت حراسة يتولاها احد ضباط الوحدة ، ويكون مسئولا عنه ، ويتغير باخر فى اليوم التالى ، وهكذا ـ لحين انتهاء التحقيق معه .

وتطلع امام حوله ، ثم قال لى هامسا :

ـ « سنذهب الى سجن الاجانب »

وكلفت احد زملائى الضباط من الميس بارسال الطعام لى الى سجن الاجانب وجمعت ملابسى وانا تحت حراسة إمام .

وغادرنا الميس . ووصلنا الى سجن الاجانب ، وهو مبنى مكون من طابقين ، وملاصق للهلال الاحمر فى شارع رمسيس . وكان مأمور السجن اسمه هيكمان ، وهو مالطى الجنسية ، وان كان يتحدث العربية مثلنا تماما .

وقاموا بتفتيشى ، ثم ادخلونى الزنزانة رقم (٦) بالدور الاول .

ورغم المجهول الذى دفعونى اليه ، فلم اشغل نفسى به . وقمت بتناول افطارى مع مدفع المغرب وعقب تادية صلاة المغرب ، جلست على الارض فوق البطانية ..

وهنا فقط بدات التفكير ..

شاب فى الثالثة والعشرين من عمره ، تخرج ضابطا فى القوات المسلحة ، وبعد اربع سنوات خدمة فقط ، صدر الامر بالاستغناء عن خدماته ، فاصبح اليوم بلا عمل ، وبلا مستقبل !..

ليس هذا فقط بل والقوا به داخل سجن الاجانب ، ولا يعرف متى سيفرج عنه او ماذا سيكون مصيره .

مشكلة . بل مشكلة كبرى .

وظللت افكر واقلب الفكر عن الحاضر والمستقبل والعائلة التى انا مسئول عنها ماذا سيكون مصيرها ، ومن اين ابدأ .. والى اين سينتهى بى المصير فى هذه الزنزانة .

ظللت نهبا لهذه المشاعر العاصفة حينا والهادئة حينا اخر حتى قفزت الى ذهنى ميت ابو الكوم ..

وبدأت استشعر الراحة والامان ..

من هناك .. من ميت ابو الكوم يمكننى ان ابدأ من جديد . هناك لن اكون مطاليا بالحفاظ على مظهرى كضابط ، وكساكن فى عاصمة البلاد ..

ولن احتاج الى البذلة ، والقميص ، والكرافت .. كل ما سأحتاجه هو البيت . والارض موجودة .. قيراطان . وسابنى البيت على قيراط ، وازرع الباقى حديقة صغيرة .. وتكاليف البيت لن تزيد بحال من الاحوال عن ٧٠ جنيها ـ ولم تكن هناك مشكلة ـ فلدى مكافأة الخدمة عن السنوات الاربع فى الجيش وقيمتها ٨٠ جنيها .

ولم اكتف بهذا الحل ، وانما بدأت ادرس التفاصيل . فتصورت شكل البيت ، وخطيت منظره من الخارج ، ثم قررت ان اضيف اليه « الحمام » ، والحمامات لم تكن معروفة فى قريتى فى ذلك الوقت .

وهكذا انشغلت داخل زنزانة سجن الاجانب ، بالحل الذى تصورت انه يحل مشكلتى بعد طردى من الجيش ، وحبسى فى السجن . واحسست براحة نفسية ، وبرضاء ، واطمئنان على نفسى وعلى مستقبلى .

كل هذا بمجرد ان نطقت لنفسى بكلمة واحدة هى : ميت ابو الكوم ـ

فهناك رابطة قوية جدا بينى وبين الارض . وجدتى ـ ام والدى ـ هى التى علمتنى كيف ارتبط بالارض ، واحبها ، واعود اليها فى كل مرة تواجهنى فيها مشكلة ، او اقع فى مأزق .

وبدأت انتظر ، واستعد ، لليوم الذى سيفرج عنى فيه ، حتى اسافر فورا الى ميت ابو الكوم وابدأ هناك حياتى الجديدة ، كما تخيلتها ، وكما حددتها .

ومر شهر ، وشهران ..

ثم فوجئنا ذات يوم بمن يخطرنا بالاستعداد لمغادرة سجن الأجانب . وتصورنا ان هذا معناه الافراج . وبالفعل جاء من ياخذنى من الزنزانة الى مكتب المأمور هيكمان . وسلمنى الاشياء الخاصة بى ، ثم وقعت فى الدفتر ، واتجهت ناحية باب الخروج من السجن . وكما يحدث فى افلام السينما ، لاحظت وقوف سيارة من نوع « بيك اب » خاصة بالبوليس مغطى نصفها الخلفى بالبطاطين . وطلبوا منى الصعود داخلها ، من الخلف طبعا . وبمجرد صعودى اعادوا البطانية لتخفى من بداخلها . ولم اكن وحدى داخل السيارة . ولم اكن اعرفهم .

المهم ان السيارة تحركت ، ولم نكن نعرف اتجاهها ، ونحن داخل تلك العلبة المظلمة ! ولحسن الحظ ان الرحلة السرية لم تستغرق اكثر من نقيقتين . وتوقفت السيارة ، وانزلونا منها فوجدنا انفسنا فوق رصيف قطار الصعيد فى محطة مصر !

وكان رجال البوليس فى كل مكان . ولم يسمح للجمهور بالوقوف او السير فوق الرصيف . اجراءات امن مهولة ، وغريبة . وكان القطار ديزل صغير واقفا

تربية الأرانب . وبقى داخلها ، حتى تبدأ عملية تبادل دورية الحراسة ، فنستغل الضجة والحركة ، فى ان نمسك بالسلم ثم نضرب بطرفيه المدببين سقف الغرفة ، ضربات عنيفة ، ومتتالية ، ولمدة الثلث ساعة المعروفة . وبمجرد انتهاء عملية تسليم الحراسة ، وهدوء المكان ، نسارع ونتوقف عن ضرب السقف ، الى اليوم التالى .

وهكذا ....

واستطعنا بعد ايام ان نحدث فتحة فى سقف الغرفة ، وتكون كافية لمرور اجسامنا منها والوقوف فوق السقف . واصبحت الفرصة متاحة وسهلة لاتمام عملية الهروب . ولكن قبل تحديد لحظة الهروب ، كان علينا القيام ببعض الاستعدادات ، اهمها :

(١) الانتظار لليلة غير قمرية ، حتى لا يرانا حرس المعتقل ونحن نتسلل من فوق السقف لنقفز الى الأرض وراء السور .

(٢) اعداد سيارة تكون فى انتظارنا فور نجاحنا فى الهرب من المعتقل .

وتولى زميلى حسن عزت مهمة احضار السيارة ، ووعد بأنها ستكون تحت امرنا بمجرد هروبنا . وبالفعل حددنا ليلة الهروب ، ثم بدأنا نستعد لليلة الكبيرة ! وقبل ان انسى احب ان اقول ان الهرب من المعتقل لم يكن الهدف منه هو الاختفاء ، وانما كان الهدف هو اثارة الرأى العام ضد الحكومة بسبب المعتقلات ، والأحوال السيئة التى يعانى منها المعتقلون . ليس هذا فقط بل اننى قلت لزملائى الخمس ـ الذين هربوا معى ـ اننا سنعود مرة اخرى الى المعتقل . وبمجرد ان نحقق هدفنا . ووافقوا جميعا على رأيى ..

وكانوا : حسن عزت ، موسى صبرى ، حسن جعفر ، محسن فاضل ، احمد حسنى . وحددت لكل واحد منهم الدور الذى سيقوم به ، بعد نجاح الخطة ، فى الاتصالات ، والخطابات التى يبعث بها الى المسئولين يبلغهم فيها بالهدف من الهرب ، ولاثارة غضب الحكومة وتنبيه الرأى العام .

وعندما تأكدنا من استعداداتنا ، وجاءت الليلة غير القمرية ، وابلغنا حسن عزت ان السيارة فى انتظارنا ، اعطيت امر التنفيذ .

ودخلنا نحن الستة الى غرفة تربية الأرانب . وامسكت انا بالسلم ، وطلبت من حسن عزت ان يصعد هو الى السقف ، ليساعد الباقين فى الخروج من الفتحة . وبالفعل بدا صعود الزملاء واحدا ، بعد الآخر ، ثم صعدت انا اخرهم ، وبعد ذلك جرينا ناحية السيارة التى كانت بالفعل فى انتظارنا .

ولم يكن سهلا الحصول على تلك السيارة ..

حقيقة ان السيارة ذاتها لم تكن مشكلة ، وانما المشكلة الحقيقية كانت فى العثور على اطارات صالحة لتسيير تلك السيارة . فالوقت زمن الحرب . والاطارات كانت شحيحة . بل نادرة جدا . واسعارها اغلى من ثمن السيارة ذاتها . وعرفت ان حسن عزت اشترى سيارة ماركة اولدزموبيل ، ببضعة جنيهات . حوالى اربعين او خمسين جنيها على الاكثر . وكانت ـ كسيارة وكمحرك ـ فى حالة جيدة جدا . المشكلة كانت فى الاطارات . ولكن حسن عزت اكد لى انه عثر على اطارات جديدة ، وصالحة

عرفت هؤلاء

بقلم : انور السادات